

الفصل الثاني عشر

المؤثرات في هذا الأدب

يتأثر الأدب بمؤثرات متعددة تطبعه بطوابع خاصة ، وتزاحم هذه المؤثرات أحياناً ، وتتعاون أحياناً ، ويختلف بعضها ، كما يتغلب بعضها ويكون صاحب الأثر الأول . والمؤثرات التي يُحتمل أنها أثرت في هذا الأدب ، أو كان يجب أن تؤثر فيه هي :

١ — البيئة :

وتقصد بها مصر بنهرها العظيم ، وواديها الخصيب ، وزروعها الناضرة ، وجناتها الظليلة المثمرة ، وصحرائها الشاسعة ، وجبالها الكثيرة ، وهوائها الجميل ، وجوها المعتدل .

وهذه البيئة لم تترك في الأدب العربي إلا آثاراً قليلة كرسالة عمرو في وصف البلاد ، وهي أقوى ما أثر ، على الرغم من أنها لم تكن مقصودة لذاتها — وهناك أبيات ثلاثة قالها ابن قيس الرقيات في « حلوان ذى الكروم » وما حولها ، وأبيات له في وصف السفن التي غدت من الكريون « إلى حلوان تستبق^(١) » . وقد تجدد بعض أسماء الأماكن المصرية ، واسم مصر نفسها ، يتردد كثيراً في الأدب ، والشعر خاصة ، ولكنه لا يتجاوز سرد الأسماء .

(١) ٧٨ ، ١٤٧ ، ١٤٩ من هذا الكتاب .

ولا نجد وصفاً أدبيّاً جيلاً لهذه البيئة ، أو أدباً من وحيها إلا في عهد الإخشيديين لما ظهر شعراء الأديرة الذين وصفوا ماحولها من متنزهات؛ وتحدثوا عنها في الربيع فأكثروا الحديث عن أزهارها وأطيّارها ، ومزجوا ذلك بذكريات الأيام الجميلة التي استمتعوا فيها بالشباب والشراب والصيد واللهو في تلك المتنزهات والأديار .

وأما النيل فكان وحيه ضعيفاً إلى الأدباء على الرغم من قوته وسحره ، وخيراته ووضوح آثاره واختلاف أحواله على مدى العام . ومن هذا الوحي الضعيف قول نصيب في مدح عبد العزيز بن مروان ، يشبهه بالنيل في الكرم والخير .

فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذي في مصر نيل
وقول أبي نواس يقرن الخصب به في اليمن والبركة :

النيل ينعمش ماؤه مصرا ونذاك ينعمش أهله الغمر
وقوله في ذم أهل البلاد :

أموالكم حجة والبخل عارضها والنيل مع جوده فيه التماسيح
وقد ترى أحاديث عنه في الكلام عن المعائب ، أو حين التحدث عنه جغرافياً كوصفه من منبعه إلى مصبه ، وهو وصف لم يقصد به الأدب .

٢ — الثقافة :

وشاعت في البلاد من أول الإسلام ثقافة إسلامية عمادها العلوم الشرعية واللسانية ثم شاركتها الثقافة العقلية ، ولم يكن لهذه الثقافة في الأدب المحض ، بشعره ونثره ، أثر يذكر ، ولكن كان لها أثر قوى في مجالس العلم وكتب العلماء ، ومناظرات أهل المذاهب والعقائد ، يبدو في الموضوعات التي كان يدرسها أولئك العلماء ، وفي طرق البحث كالمناية بالاستقصاء ، والاعتماد على المنطق المنظم والفصوص وراء المعاني الدقيقة ، والتماس الأسباب والعلل . وغير ذلك مما يطبع مجالس العلم وأبحاث العلوم . وفي كتب الفقه عند الشافعية والمالكية والحنفية بمصر كثير من

هذه المجالس والمناظرات . وأمثلة للغة العلم والجدل . أوضحها استخدام ألفاظ وجل اصطلاحية محدودة المعاني دقيقة الاستعمال .

وإذا كان لمدرسة الاسكندرية ، أو لقوانين الرومان أثر في العقل العربي . والتشريع الإسلامى بمصر فقد كان ضعيفاً أيضاً تتلمسه تلمساً . وأكثر تأثرها بالفلسفة اليونانية كان عن طريق العراق .

ومن آثار الثقافة الإسلامية في الأدب ما تراه في اقتباسه لغة القرآن الكريم كقول المولى الطائى :

لا نلتقى أبداً معاينة حتى نقوم لرَبنا صفاء
وقول الجيشى فى آل طولون :

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غابر ذهباً
وكم تركوا من جنة أنف ومن نعيم جنى من غدرهم غضباً
وقوله فى شوق البلاد إلى ابن الخليلج :

وما شوقها كان من طبعها ولكن ربك أوحى لها
وقول سميد القاص لبدر الحمأى المتغلب على ابن الخليلج :

فاسعد بنصر الله والفتح الذى عظمت به النعمى على الأبرار

٣ — القمد :

وللنقد أثره فى الأدب فإنه يبصر الشعراء والكتاب بعيوبهم ، ويدعوهم إلى التجديد أو الإجابة . وكان بمصر نقد أدبى يخشى . ونسمع به لأول مرة فى عهد عبد العزيز ابن مروان عندما وفد نصيب عليه وأراد أن يصل بمدحه إلى مسامعه ، فحذره صاحبه المصرى أن ينتحل ؛ لأن الأمير أديب راوية وعنده رواية^(١) خبراء .

وانظر إلى قول أمية بن أبى عائذ فى عبد العزيز^(٢) :

تسير بمدحى عبد العزيز من ركبأن مكة والمنجدونا

مَجْتَبَاً مِنْ صَرِيحِ الْكَلَامِ لَيْسَتْ كَمَا لَفَّقَ الْمُحَدِّثُونَ
وَكَانَ امْرَأً سَيِّدًا مَاجِدًا يَصْنَعُ الْعَتِيقَ وَيُنْفِى الْهَجِينَ
وَكَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ سَرَجُ الْغَوْلِ يَسْتَدْعِيهِ الشَّافِعِيُّ لِيُنَظِرَهُ وَيَذَاكِرَهُ ،
وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَلَماً بِاللُّغَةِ ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ شَيْئاً مِنَ الشَّعْرِ إِلَّا عَرَضَهُ عَلَيْهِ ^(١) .
وَنَسْمَعُ بِهَذَا النِّقْدِ مَرَّةً أُخْرَى فِي هِجَاءِ أَبِي تَمَامٍ لِيُوسِفَ السَّرَاجِ الَّذِي عَابَ
عَلَيْهِ مِيلَهُ عَنِ السَّهْلِ مِنَ الْمَعَانِي حَتَّى احْتَاجَتْ فِي فَهْمِهَا إِلَى فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ ^(٢) .
وَالَكِنْ مَا أَثَرُ هَذَا النِّقْدِ فِي نَفْسِ السَّرَاجِ ؟

وَنَسْمَعُ بَعْدَ ذَلِكَ بِوَقَائِعٍ مَعِينَةٍ فِي النِّقْدِ عِنْدَمَا جَاءَ الْمُتَنَبِّىُّ إِلَى مِصْرَ ، فَأَثَارَ عَلَيْهِ
ثَأْرَةُ سَيِّوِيَةِ الْمِصْرِيِّ وَصَالِحِ ابْنِ مَوْسَى وَغَيْرِهَا بِسَبَبِ مَا رَأَوْهُ مِنْ عَيُوبٍ لَفْظِيَّةٍ
وَمَعْنَوِيَّةٍ فِي شِعْرِهِ ، وَلَمْ يَتْرِكْ هَذَا النِّقْدُ أَى أَثَرٍ فِيهِ لِاعْتِدَادِهِ بِنَفْسِهِ .
لَكِنْ دَرَسَةُ الْأَدَبِ وَنِقْدُهُ فِي مِصْرَ قَدْ تَرَكَ أَثَرًا فِي الْأَدْبَاءِ وَتَوَجَّهًا لَهُمْ بِمَا
كَانَ يَقُومُ بِهِ أَسَاتِذَةُ النُّحُوِّ وَرَوَاةُ الْأَدَبِ مِنْ ثَنَاءٍ وَذَمٍّ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ ، أَوْ بَعْضِ
النُّصُوصِ وَكَانَ لَهُذَا النِّقْدُ وَالدِّرَاسَةُ مَجَالِسٌ فِي الْمَسَاجِدِ أَوْ فِي بُيُوتِ الْخَاصَّةِ ،
وَقَدْ يَخْتَلِطَانِ بِدُرُوسِ النُّحُوِّ عِنْدَمَا يَسْتَطِرِدُ الْعَالَمُ مِنَ الشَّاهِدِ إِلَى بَقِيَّةِ الْقَصِيدَةِ
أَوْ عِنْدَمَا يَنْقُدُ الْبَيْتَ أَوْ الْأَيَّاتِ الَّتِي يَعْرِضُ لَهَا . كَمَا كَانَا يَتَصَلَّانِ بِرِوَايَةِ
الْأَخْبَارِ وَالْأَشْعَارِ .

٤ — الْإِتِّجَاهُ الْأَدَبِيُّ الْعَامُّ :

وَنَذَكِّرُ جَيِّدًا أَنَّ تَأْثِيرَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْعَامِّ وَبِخَاصَّةٍ فِي حَوَاضِرِ الْخِلَافَةِ كَانَ لَهُ
أَثَرُهُ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِمِصْرَ . فَالشُّعْرَاءُ الَّذِينَ رَحَلُوا إِلَى مِصْرَ كَانَتْ مَدَائِنُهُمْ لِعَبْدِ
الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ مُتَقَارِبَةً ، وَكَانَتْ صُورَةُ مِنَ الْمَدَائِنِ الْعَامَّةِ الَّتِي كَانَ يَفْدِيهَا غَيْرُهُمْ
مِنَ الشُّعْرَاءِ . وَيُقَالُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْمَدْحِ أَوْ الْهَجَاءِ الَّذِي رَأَيْنَاهُ مِنْ أَبِي نَوَاسٍ وَأَبِي
تَمَامٍ وَدَعْبَلٍ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَسَالِيبُ وَالْعِبَارَاتُ .

(٢) ص ٢٢٤ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ

(١) بَغِيَّةُ الْوَعَاةِ ص ٢٥٥

والأدب المحلى كان يتأثر بهذا الأدب العام كثيراً ، وانظر إلى مدحة المعلى لعبد الله بن طاهر ، وهجاء الحسين الجمل لابن وهب^(١) .
ولما شاعت المحسنات البديعية في العراق ظهر أثرها في مصر . وكانت الكتابة في العراق ذات أثر بعيد في الكتابة المصرية حتى في عهد الطولونيين والأخشيديين وتعليل ذلك يسير فقد كانت الحواضر وما زالت ذات نفوذ واسع على غيرها من أمصار الدولة ، في الأدب والثقافة والفنون ، ويقلدها النازحون عن هذه الحواضر إكباراً لها ولرجالها . فإذا ضعفت سيطرتها ظهر استقلال الأمصار بأدبها وظهرت فيه طوابع محلية خاصة تميزه من غيره .

٥ — التاريخ الحديث :

أما تاريخ البلاد من الفتح الإسلامي ، فكان مسيطراً إلى حد كبير على أدبها ، وقد رأينا صدهاء في الرسائل والخطب ، وظل هذا الصدى قوياً فيما قيل من أشعار في الأحداث والفتن والحروب والمناسبات التاريخية ، كما بيناه في ثنايا الكتاب .

٦ — التاريخ القديم :

ولكن لهذه البلاد تاريخاً قديماً ، وحضارة عظيمة عاشت آلاف السنين ، وكان لأهلها في هذه الآلاف من السنين علوم وفنون خلدها آثار لا تحشى البلى ، على سطح الأرض وفي جوفها . وكان للبلاد أدبها الذي نبئت أساطيره قبل الملك « مينا » ؛ وتنوع ، ونقش على الصخر ، وسطر على البردى .
وكانت آثار البلاد كثيرة بعضها شامخ كالأهرام الكثيرة المتفرقة في أنحاء البلاد ، والمسلات الباسقات ، والمعابد والبرابي ، في الأقصر ، والكرنك ودندره وأخميم ، وغيرها من مواطن الآثار الفرعونية ، كما كانت الاسكندرية موطن الفن اليوناني والروماني ومن أشهر آثاره المنارة وعمود السوارى .

(١) ص ٢٠٩ ، ٢١٣ من هذا الكتاب .

وسمى العرب هذه الآثار بالمعجائب ، وعد الجاحظ منها عشرين عجبية ، فيما نقله عنه المقرئى^(١) .

وما خفى من هذه الآثار فى جوف الأرض كان عظيماً أيضاً ، ولم يسلم من العبث به وهتك أستاره منذ العهود القديمة . ولم يكف لصوص المقابر عن انتهاك حرمتها طلباً للذهب الذى كان يملؤها .

وليس غريباً أن نجد المصريين فى الإسلام يطلبون الثروة من الكنوز الدفينة فى هذه المقابر ، التى كانوا يسمونها « المطالب » ، وأن تروى عن ذلك قصص وأخبار . ونسمع بذلك لأول مرة فى عهد عبد العزيز بن مروان : فإن المسمودى^(٢) يحدثننا حديثاً عجيباً عن مطلب من هذه المطالب كشف فى عهد عبد العزيز؛ وأنه أمد الباحث عنه بالمال ، لما أخبره بما فيه من المعجائب ، وكان منها ديك على عمود من الذهب، وعيناه ياقوتتان تساويان الدنيا ؛ وأن الرجال حفروا حتى وجدوا رأس الديك . « فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف » . وركب عبد العزيز إلى ذلك الموضع « فنظر إلى ما ظهر من ذلك ، فأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة منسبكة من نحاس تنتهى إلى ما هنالك ، فلما استقرت قدمه على المرقاة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالتفا على الرجل فلم يدرك حتى جزأه قطعاً وهوى جسمه سفلاً . فلما استقر جسمه على بعض الدرج ... صفر الديك تصفيراً عجيباً ... وحرك جناحيه ، فظهرت من تحته أصوات عجبية قد عملت بالكواكب والحركات ، إذا ما وقع على بعض تلك الدرجات شئ أو ماسها تهافت ما هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفيرة . وكان فيها ممن يحفر ويعمل وينقل التراب ، ويبصر ويتحرك ، ويأمر وينهى ، نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعاً . فجزع عبد العزيز وقال : هذا ردم

(١) الخطط ج ١ ص ٣١ (٢) مروج الذهب ص ١٥٧ المطبعة الأزهرية

عجيب الأمر ، ممنوع النّيل ، نعوذ بالله منه . وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس فكان ذلك الموضع قبراً لهم .

وفي عهد الطولونيين كانت منطقة الأهرام وعين شمس موطن البحث عن هذه المطالب أو الكنوز ، وعثر فيها على توابيت وموميات وتماثيل جميلة الصنع . روى أن ابن طولون ركب يوماً إلى الأهرام^(١) فجاءه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ، وفي أيديهم مساح ومعاول فسألهم عما يعملون ، فقالوا : نحن قوم نطلب المطالب ، فأمرهم ألا يفعلوا ذلك بعد الآن إلا بإذنه ، ويكون معهم رجل من قبله . ثم ذكروا له أن في سمات الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه ، فأمدّهم بالنفقات الكثيرة اللازمة لاستخراجه ، فكشفوا عن حوض كبير عظيم مملوء بالدنانير ، وعليه غطاء مكتوب عليه ، فأحضروا من قرأه .

وروى السيوطي في حسن المحاضرة^(٢) أن أحمد بن طولون لما ملك مصر حفر على أبواب الأهرام فوجدوا في الحفر قطعة مرجان مكتوباً عليها سطور باليوناني فأحضر من يعرف ذلك القلم فإذا هي أبيات شعر فترجمت ومما كان فيها :

ستفتح أقالى وتبدو عجائبي وفي ليلة في آخر الدهر تنجم
ثمان وتسع واثنتان وأربع وسبعون من بعد المئين فتسلم
ومن بعد هذا جزء تسعين برهة وتلقى البرابي صخرها وتهدم
تدبر فعالي في صخور قطعها ستبقى وأفنى قبلها ثم تعدم
فجمع أحمد بن طولون الحكماء وأمرهم بحساب هذه المدة فلم يقدرُوا على تحقيق ذلك ، فيئس من فتحها .

وروى أنه في عهد ابن طولون ، وجد الكثر المشهور بعين

(١) سيرة ابن طولون للبلوي ص ١٩٤

(٢) ج ١ ص ٩ وهامش السيرة المذكورة ص ١٩٥

شمس ، وآتى له منه ببيت وعلى صدره لوح ذهب مكتوب بالقبطية ، فقريء ، فإذا فيه : أنا أكبر الملوك ، وذهي أخلص الذهب ؛ فحمل ذلك ابن طولون على تعديل نسبة الذهب في نقوده .

وكان في عين شمس صنم على مقدار الرجل المعتدل الخلق ، من كذآن^(١) أبيض ، حسن الصورة ، يخيل لمن استعرضه أنه ينطق ، ووصف لابن طولون فأحب رؤيته ، فخوفه خادم نصراني ثقة أن يراه ، لأنه ما رآه وال قط إلا غزل ، لكن ابن طولون ركب إليه في سنة ٢٥٨ ، فتأمله ، ثم أحضر القطاعين وأمرهم أن يجثوه من الأرض حتى درس وعفا خياله ، وذرى ما بقي حياله في الصحراء . وعاش ابن طولون بعده اثنتي عشرة سنة .

وترى رغبة القوم في حب المعرفة وكثرة الأسئلة عن أشياء تتصل بالنيل والآثار مما رواه المسمودي^(٢) عن أحمد بن طولون أنه استدعى رجلاً قبطياً من الصعيد الأعلى عمره مائة وثلاثون سنة ، ليسأله عن أشياء من ذلك ، فجاءوا به سنة نيف وستين ومائتين . ووكل به ابن طولون من يسأله ، فسأله عن بحيرة تنيس ودمياط فأخبر أخباراً عجيبة ، منها أن بحيرة تنيس « المنزلة » كانت جنات وبساتين ، وأن البحر بين العريش وبين جزيرة قبرص كان ينسأ .

وسئل عن الأهرام فقال^(٣) : إنها قبور الملوك . ثم سئل كيف بنيت الأهرام المملسة فأخبرهم ، فقليل له : « ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي لا تقرأ . فقال : دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول مصر الأمم فغلب على أهلها القلم الرومي ... على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول » .

(١) حجارة . سيرة ابن طولون للبلوي .

(٢) (٣) ج ١ ص ١٥٠

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٤٩

وكان لهذا العالم القبطى مجالس كثيرة^(١) عند أحمد بن طولون .

وكان فى عصر الإخشيد تنقيب وبحث .

قال المسمودى : « إن جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الأمم المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب يبعث الأفلام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام بأن فيه مطلباً عجيباً ، فأخبروا الإخشيد محمد بن طنج بذلك ، فأذن لهم فى حفره وأباحهم استعمال الحيلة فى إخراجها فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى آرجٍ وأقباء ، وحجارة مجوفة فى صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء ، والصور مختلفة : منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما وجوها ذهب وفضة ، فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها رماً بالية ، وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرابى وغيرها من الآلات من المرمر والرخام . وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب ، وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الإناء ؛ والطلاء دواء مسحوق ، وأخلط معمولاً لرائحة لها ، فجعل منه على النار فتأخ منه روائح طيبة مختلفة ، لا تعرف فى نوع من الأنواع التى للطيب » .

« وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم ، وتباين صورهم ، وبازاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل ، وكان ذلك فى سنة ٣٢٨ » .

ثم يقول المسعودى^(١) :

وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر إلى احمد بن طولون وغيره إلى هذا الوقت — وهو سنة ٣٣٢ — أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجوهر ، وما أصيب في هذه المطالب من القبور والخزائن .

وقد أدهشهم هذه الآثار الظاهرة والمستورة ، وحاولوا معرفة شيء عنها ، وقراءة ما كتب عليها ؛ وفسروا ما وجدوه مكتوباً عليها أحياناً ، واستعصى عليهم قراءة المکتوب فلم يترجموه أحياناً أخرى ، وكان تفسيرهم لهذه الآثار عجيباً ، بل قرروا أن ذا النون المصرى الإخيمى ، الزاهد ، كان ممن يقرأ عن هذه البرابي ، وأنه قال : رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته . فإذا هو : « احذر العبيد المعتقدين ، والأحداث المقربين ، والجند المتعبدین ، والتبطل المستعربين » . قال : ورأيت في بعضها كتاباً فتدبرته فإذا فيه : « يقدر المقدر والقضاء يضحك » وزعم أنه رأى في آخره كتابة وتبينها في ذلك القلم الأول فوجدها :^(٢)

تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد

وحين أورد المسعودى الحديث عن الأهرام وما عليها من الكتابة قال إن منها مكتوباً هو : « إنا بنيناها فمن يدعى موازتنا في الملك ، وبلوغنا في القدرة ، وانتهاءنا من السلطان فليهدمها ، وليزل رسمها ؛ فإن الهدم أيسر من البناء ، والتفريق أيسر من التأليف » .

ونرى من هذه التراجم شعراً وثراً لما كان على الأهرام أو غيرها من الآثار أن أكثرها من وحي الخيال ولسان الحال .

(١) ج ١ ص ١٥٨ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٥٥ طبعة ١٣٠٢ هـ .

وعنيت كتب التاريخ بهذه الآثار والمجانب كما عنيت بها كتب الخطط ،
ووصفها المؤرخون ، وأبدعوا في وصفها ، ورووا كثيراً من قصصها وحكاياتها ،
ونستطيع أن نعدّها من الأدب التاريخي أو من القصص المبنية على التاريخ ،
أو نعدّها من أدب الوصف . ولكنها لم تكتب لتكون أدبا ، ومن هنا أهملها
مؤرخو الأدب . وتركوها للتاريخ ، وكانت موضع تحقيق .

ولكن ما السر في عدم تعلق الأدب المحض بها ؟ وأنه لم تنسج حولها القصص
الأدبية ؟ وما السبب في عدم وقوف شعراء العرب عليها كما وقفوا بأكين على الأطلال
والدمن ؟ وما الذي صرفهم عن الاعتبار بها ، والاتعاظ بمن أنشئوها ثم تركوها ،
وصاروا مثلاً الآخرين ؟ .

وما عذر الطولونيين ومن بعدهم في إهمال أدب الآثار القديمة ؟ لقد رأوا ما ظهر
منها ، وكشفوا كثيراً مما بطن وكان عندهم المثال الذين يسرون على طريقته ؟ وهو
سينية البحتري في إيوان كسرى ، وكانت قوية ومشهورة جداً ، لجودتها
ولغرابتها موضوعاً وقافية . وكان عندهم من قبل البحتري أبيات كريب بن مجلد ،
في وصف صنم في حمام زبّان على شكل امرأة ، يبدو من وصفه أنه من آثار اليونان
أو الرومان ، ومن هذه الأبيات ^(١) :

من كان في نفسه للبيض منزلة	فليأت أبيضاً في حمام زبّان
عَبْل لطيف هضم الكشح معتدل	على ترائبه في الصدر ثديان
لا روح فيه ، ولا شفر يقلبه	لكنه صنم في خلق إنسان

والجواب على ذلك أن هذا الأدب العربي المحض كان أسير التقليد فلم يتجه إلى
وصف الآثار القديمة مع كثرة ما رأى العرب منها في مصر والعراق والشام

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١١٤ — ١٥٨ من هذا الكتاب .

والأندلس ، ولم يشغل الأدباء أنفسهم بوصفها أو الاتعاط بها ، ولم يتركوا شيئاً من الأدب حولها إلا نادراً .

ثم إن وقوف العرب على الأطلال والدمن كان وقوفاً تثيره ذكريات الأحباب وماضى الشباب ، وبلى الأطلال ، وارتحال أهل الديار .

أما هنا فالآثار الغاز وطلاسم لا يفهمون أسرارها ، ولا تتور عواطفهم عند رؤيتها ، ولا يتصل تاريخهم بها .

حقاً إنهم وقفوا على بعض الآثار التي شهدوا عزها وذلها ، ورأوا عظمتها وفعل الأيام بها . وظهر لنا من ذلك رثاء ابن شافع للدار المذهبة التي كانت لآل عبد العزيز ابن مروان^(١) .

ومنه ما رأيناه من الشعر الذى قيل فى أعقاب الطولونيين فى الشماتة بهم ، واستقبال من أبادوهم ؛ أو فى البكاء لما أصابهم ورثاء دورهم وقصورهم ، والأسى على أيامهم ، والاعتبار بمصيرهم ، وقد يصحب ذلك وصف مجمل أو مفصل لهذه الآثار ، أو لأيام المجد والعظمة ، فيثير البكاء ويدعو إلى الاعتبار .

ومنه رثاء عمارة الحينى لدولة الفاطميين ، وما كان من شعراء الأندلس فى رثاء دولهم التي كانت تنهاوى واحدة بعد أخرى .

ولكن وقوفهم على تلك القصور والدور ؛ ورثاءهم لتلك الممالك والدول ، كان أشبه بالوقوف على الأطلال والدمن ، أثارته مشاهدة تقلبات الدهر ، ورؤية الآثار فى حالى اليسر والسر ، فكان ما أصابها على مرأى ومسمع منهم داعياً إلى بكائها ، والاعتبار بها . أما الآثار القديمة فيثير الحديث عنها إكبارها ، والإعجاب بفنها ، والدهشة لما تحويه من سحر وعبقرية وشبه ذلك .

وقد ظل الأدب العربى مقصراً فى هذه الوقفات على الآثار الخالدة ، حتى جاء شوقى فوقف على آثار القراءة وآثار العرب بصفها ويرثيها ، ويتحدث عن عظمتها الماضية ، وعبرها الباقية ، فأبدع إبداعاً عظيماً .

الفهرس

المقدمة :

الفصل الأول : الفتح الإسلامى لمصر : ١ - ١٩

معرفة العرب بها ، مسير عمرو إليها (٤) عوامل انتشار اللغة العربية بها :
الإسلام (٥) هجرة القبائل (٨) كثرة العرب بمصر (١٣) أثر الهجرات في
اللغة (١٦)

الفصل الثانى : الخطب والوصايا : ٢٠ - ٥٣

(١) الخطابة : حاجة الفاتحين إليها (١٩) خطبة لعمرو (٢٠) فى الصلح بين
عمرو والمقوقس (٢٤) خطب عتبة (٢٩) الخطابة بعده (٣٥) الخطابة العباسية (٤٠)
من الطولونيين إلى الفاطميين (٤٣)
(ب) الوصايا : الفرق بينها وبين الخطابة (٤٦) وصية قيس بن سعد (٤٧)
وصايا مروان بن الحكم (٤٨) وصايا ابن طولون (٥١)

الفصل الثالث : القصص : ٥٤ - ٧٥

متى ظهر فى الإسلام (٥٤) وفى مصر (٥٥) صورته (٥٦) أولاد قصة . عمرو
والكرة (٥٨) عمل المؤرخ والأديب (٦٠) قصص أخرى (٦٣) كتاب
المكافأة (٦٦)

الفصل الرابع : كتابة الرسائل : من عمرو إلى ابن طولون ٧٦ - ١٠٢

(١) فى زمن الراشدين (٧٧) بين عمرو والخليفة . رسالة عمرو فى وصف
مصر (٧٩) رسائل أخرى
(ب) فى عهد بنى أمية (٩٠) نقل الديوان إلى العربية (٩٢)

(ح) في عهد العباسيين : الليث بن سعد (٩٧) رسالة العتصم (٩٩)

الفصل الخامس : الرسائل من ابن طولون إلى الفاطميين ١٠٣ — ١٢٧

ديوان الإنشاء (١٠٣) فضل ابن طولون على الكتابة (١٠٥) قصته مع
ابن عمار ورأيه في الكتاب (١٠٧) موقفه من الأدب (١١١) بينه وبين ابنه (١١٦)
الكتابة في مصر والعراق (١١٩) صفات الكتابة (١٢٠) ابن عبد كان (١١٩)
ابن نصير (١٢٢) رسالة الإخشيد إلى أرمانوس (١٢٤) التجيرى (١٢٦)

الفصل السادس : الشعر إلى آخر بني أمية : ١٢٨ — ١٦١

(١) إلى عبد العزيز بن مروان (١٢٨)

(ب) في عهد عبد العزيز (١٣٥) شعراؤه (١٣٥ — ١٥٢)

(ح) من عبد العزيز إلى العباسيين (١٥٥)

الفصل السابع : شعر العصر العباسي : ١ — ١٦٢ — ١٨٢

الشعر التاريخي ، صدى النزاع بين الأمين والمأمون (١٦٦) في ثورة ابن الجروى
والسرى بن الحكم (١٦٨)

الفصل الثامن : شعر العصر العباسي : ٢ — ١٨٣ — ٢٠٦

الشعر القضائي : القاضى المفضل (١٨٥) القاضى العمري (١٨٧) قضية
الحرس (١٨٩) قضية السباق (١٩٣) القاضى البكرى (١٩٥) الشعر في الخلافات
المذهبية (٢٠١) ابن القطاس (٢٠٣) ابن الليث والمهائم (٢٠٤) صورة الجماعة في
الشعر (٢٠٦)

الفصل التاسع : الشعراء في عهد العباسيين : ٢٠٧ — ٢٢٩

(١) شعراء مصر : ابن عفير (٢٠٧) المعلى الطائى (٢٠٨) رثاء جارية (٢١٠)
في حبة الأولاد (٢١١) الجمل وشعره (٢١٢)

(ب) الشعراء الزائرون ، من مدحوا يزيد الملهبي (٢١٤) أبو نواس (٢١٧)
أبو تمام (٢٢٢) دعبل (٢٢٥) كلمة عن الشعر والشعراء (٢٢٨)

الفصل العاشر : شعر الطولنيين : ٢٣٠ — ٢٥٧

١ — في عهد دولتهم : مدح وهجاء ونفر ورثاء . شعر ابن جدار في
مغنية وفي ثقلاء (٢٣٩)

٢ — الشعر في أعقاب الطولنيين : في التشني والشماتة (٢٤٣) عظمة ملكهم
(٢٤٥) رثاء دولتهم والاعتبار بهم (٢٤٨) في حرب المغرب (٢٥٦)

الفصل الحادي عشر : الشعر في عهد الإخشيديين ٢٥٨

بعض الشعر (٢٥٩) رثاء الإخشيد (٢٦١) شعر في وصف الأديرة وما يتصل
بها (٢٦٤) دعوة إلى مجلس أنس (٢٦٨) شعر في الربيع (٢٦٩) شعر قضائي
هجائي (٢٧١) المتنبي في مصر (٢٧٢) حرص كافور عليه ، مدحه وهجاؤه له (٢٧٣)
خصائص المدح والهجاء (٢٧٦) حساده بمصر (٢٧٨) وصف مصر ، ووصف
الحمل (٢٨٠) صلته بأبي شجاع (٢٨٢) .

الفصل الثاني عشر : المؤثرات في هذا الأدب ٢٨٤ — ٢٩٥

البيئة (٢٨٤) الثقافة (٢٨٥) النقد (٢٨٦) التيار الأدبي العام (٢٨٧) التاريخ
الحديث والقديم (٢٨٨) الآثار وصلتها بالأدب من عبد العزيز إلى الإخشيديين (٢٨٩)

صواب الخطأ

وقعت أخطاء لم يمكن تجنبها . وهذا صواب أهمها :

الصفحة	السطر	الصواب
١٤	٥	اثني عشر
١٧	٥	استعانها
١٨	٥	وهؤلاء
٤٣	٦	٢٦٩
٤٣	١٧	أمر الإخشيديين
٦٠	١٢	تأثلمته
٦٣	٢	عمرا والشماس
١٧٢	٧	ما زلت
١٧٧	١	وقال أبو تمام
٢١٤	٢١	يزيد بن أسيد
٢١٥	١٦	بمصييه
٢٢٥	١٥	٤ - دعبل
٢٣٥	هامش	الوليد وكنيته أبو عبادة